

والاجتماعية يفسح المجال للحروب الاهلية والمنازعات التي كانت سبباً في سقوط الامبراطوريات الكبيرة والبول العظمى ، بل وفي فناء شعوب برمتها .

٤ - المذهبية الفردية تعصب للذات من شأنه أن تتجبر من حوله كل الصفات المرنة التي تجعل الانسان عضواً صالحاً من مجموع بشرى يضرب في سبيل الارتقاء . فإذا فشت هذه النزعة في افراد أمة أو افراد طائفة احدثت جحوماً . وفي أية صورة من الصور ظهرت المذهبية الفردية فتحيث حول فكرة فلسفية أو دينية أو اى منحى من مناحى الرقى أو التفكير الانسانى كان ذلك نذير زوالها وانحلالها و يكون من أثر هذه المذهبية ان تغلب ، جشعاً اجتماعياً ، له آثاره السوأى في حب الاستئثار بالثروة والنفوذ

٥ - والنتيجة

أن الثوب المذهبي اذا لابس اية صورة من صور الفكر أو المعتقد أو الميول أو النزعات . كان اكبر دليل على بد ، طور من الانحلال تظهر نتائجه تدرجاً وعلى مر الزمان .

تمهيد

الارتقاء رمز يسجد له الغرب كله . ومن ذلك الرمز تستمد كل المبادئ الاخرى قوة تستند اليها . فإذا قرأت للشيعيين أو للاشركيين . أو اذا رجعت الى اقوال الفرديين الذين يقولون برجوب تسود الفرد في المجتمع . وجدت أن كل فريق إنما يبرر مذهبه ويؤيده مستنداً الى رمز الارتقاء . وكذلك الحال في الفلسفة التأملية الصرفة . فان كل مذهب من مذاهبها إنما يركز على فكرة الارتقاء الانساني ليأخذها دعامة يسند اليها ظهره اذا ما تنازحت من حوله رياح النقد ، وأخذت نزعات الفكر تنخر في أساسه . وإن تجدد الحال في السياسة أو الصحافة القائمة على نفس هذه النزعة . فالارتقاء اذن هو ذلك الرمز الذي تستمد منه شتى المبادئ والفكرات ، بل والنظامات الاجتماعية ، قوة تبررها وجودها باعتبارها شيئاً ذا أثر واضح في الحياة الانسانية . والصحافة ، على ما بلغت في العصر الحديث من قوة وتأثير ، وعلى ما لها من هبة في بعض بقاع الأرض ، فانها إنما تتخذ الدعوى الى الارتقاء سبباً تتعلق به ، ومبرراً يزيد قوة ويدعم من أسسها بما لا يبلغ اليه أى سبرر آخر .

ثم ارجع الى ماهو أتفه في الحياة ، بل إلى ماهو تافه بالفعل . خذ مثلاً التمثيل المسرحي أو التمثيل السينائي ، أو الرقص ، فإن هذه الفنون ، على الرغم من أنها من أتفه مظاهر المدنية واضعفها أثراً في خلق الاتجاهات الجديدة ، وعجزها عن أن تؤثر في الحياة أثراً ظاهراً ، بل فضلاً عن أنها قد نزلت في العهد الأخير الى درك الفنون الأسفل ، اذ أصبحت من الالهيات العامة . بعد ان ادعى مؤيدوها بأنها مدارس تنقيف وإرشاد ، فانك تجدها تتخذ من رمز الارتقاء جبلاً تعلّقه ، عسى أن تمت اليه بسبب ، أو تنسب اليه بنسب .

عند بعد ذلك الى الفنون العليا . خذ الشعر والموسيقى والتصوير والحفر ، تلك الاشياء التي أدت رسالة الفن كاملة وحملت أمانة الابتكار تلقح بها العصور عصراً بعد عصر . ودهراً بعد دهر ، فانها كذلك تبجد أمام رمز الارتقاء ، وتحشع له . فكان هذا الرمز جبار تنحني أمامه جامات العلوم والفنون والاداب والنظم الاجتماعية . وهو قائم يشرف على التاريخ الانساني منذ أبعد عصوره ، يلوح للانسان — د العصر الذهبي ، — ذلك العصر الذي تمثله أهل الاغريق وسعوا اليه ، ثم من بعدهم الرومان ثم العرب ، وتلاميذ من بعد أهل هذه المدنية الحاضرة ، على خلاف في القواعد والمقاصد اذ انقلبت الوسائل من مجرد تأمل الى عمل صرف ، وتغايرت الغايات فصارت تنافساً بعد إن كانت إخاء . كل هذا ورمز الارتقاء يلوح للانسانية بعصرها الذهبي . فكانه القانوس السحري في يد ديوجينيس ، وهو يبحث عن الانسانية عندما تسود فيها الرجولة ، فتكون في أكل مظاهرها ، وتكتمل فيه النظمات الانسانية اكتمالاً هو كل ما يقصد د بالعصر الذهبي ،

وعندي انه اذا كان من اكبر مزايا الفن أن ينقل للفكر صورة كاملة دفعة واحدة ، فإن رمز الارتقاء لا كل صورة فنية أبدعها العقل الانساني — من غير أن تقدر المهارة اليدوية أو العقلية حتي الآن عن أن تعبر عنها في الشعر أو الموسيقى أو التصوير أو الحفر ، وهي في معتقدي الصور التي استحال اليها الفن استحالة حقيقية . اما التمثيل والرقص وما شابههما ، فمن أبعد الاشياء تعبيراً عن حقيقة الفن ، ومن أعجز مظاهرها الابتكار الانساني عن أن تؤدي معنى الفن الصحيح .

على أنى أخشى أن يكون في قولى بأن رمز الارتقاء هو أكمل صورة فنية أبسطها العقل الإنسانى شىء من الغموض والابهام . غير أنى أعتقد أن هنا القول يحتاج إلى قليل من الشرح ليكمل في الذهن معناه ، وتجزئ في الفكر ماهيته . فأنى أعتقد أن الصور الفنية إنما تقوم في الذهن قبل أن تخرج إلى حيز الوجود الفعلي . فالذهن أو النفس الإنسانية مبعث الفن ومباءة الصور الفنية وما تقصد بالذهن أو النفس إلا قوة التخيل مصروفة إلى شىء يسبق إلى حدسنا أنه من الممكن تحقيقه ، أو أن تحقيق شىء ما من طريقه مستطاع على الأقل . فسواء أكان الارتقاء أمراً واقعاً بالفعل كما يعتقد كثير من الفلاسفة وكما اعتقد كثير منهم فيما خلى من الزمان . أم أنه مجرد وهم استولى على العقول ، وأن الارتقاء مفهوم أو معتقود لا مدلول له كما يعتقد الآن لورد بلفور والأسقف إنجس والباحث أوستن فريمان ، وكما اعتقد بذلك فقه من أفذاذ أهل الرأي وجهابذة أهل النظر من قبل ، فإن هذا لا يخرج الارتقاء ، عن أنه رمز قى له الآن أكبر السلطان على عقول أهل الغرب ، يذرعون إليه بثى الوسائل وبمختلف الوسائط ، ما كان منها شر وما كان منها خير ، بغير تفریق ، ذلك لأن الكل مضحى به على مذبح ذلك الرمز المعبود ، بل ذلك الهيكل المقدس

في القرون الوسطى لمع في الفكر الإنسانى نجم غير نجم الارتقاء أخذ الناس سناه . فان فكرة الخلاص الأخرى كانت قد استحوذت على العقول وفسكت بالأحلام ، وعلى الأخص تحت تأثير تلك الأفكار التى روجت لها الكنائس على مختلف نزعاتها . لذلك كان لرمز الارتقاء قداسه في العصر الاغريقى ، وكان له تمجيد في العصر الرومانى كما كان له تنكأة اتسكاً عليها في العصر العربى . أما في العصور الوسطى فان الناس قد نسوا العصر الذهبى ، وأكبوا على الآخرة ينهلون على يد الكنائس في مناهلها ويرثشون من سلسيل خلودها ، فانصرف الناس عن الدنيا إلى الآخرة ، ومن العمل إلى الزهد ، ومن التأمل إلى الاستغفار ، ومن البحث وراء الحقيقة إلى التوبة خالصة لوجه الافلات من النار ، لا لوجه الله .

ولقد كان لهذا الاتجاه العقلى أثر طريح بأهل القرون الوسطى في ما آزرق امضتهم فيها المشاق ، وساقتهم إلى مزالتى ابتلعهم من فوقها لجة الموت في جوفها السحيق . فان الحروب

الصليبية المشؤومة ، وهى فى معتقدى من أكبر العوائق التى صدت المدينة عن أن تسير فى سبيل النشوء زماناً طويلاً فى الشرق وفى الغرب ، لأثر من آثار هذه النزعة وثمره من ثمرات هذا الاتجاه العقلى الغربى . ولا أكتم أن الفورة العرية التى اكتسحت العالم أبان الإسلام فيها من الحروب الصليبية شبه ولها بقواعدها آصرة . غير أن فورة العرب لم تلبث أن انقلبت مدينة مسلوخة عن بحمل المدينيات التى هدمها العرب وسقطوا على تراثها ، بل لم تلبث أن أصبحت امبراطورية استبدادية قائمة على أول قاعدة من قواعد الاسلام ، هى حصر السلطين الدينية والزمانية فى يد أمير المؤمنين ، ظل الله فوق الأرض

أما الحروب الصليبية فلم تنتج مدينة . بل قوضت دعائم الحضارة ، ولم تنقلب امبراطورية لأنها هدمت امبراطوريات . فكانت فى أساسها ومبعثها صرخة من القلب عميقة ، ظن أن صداها سوف يبلغ إلى عرش الله فوق الكروبيم وسيراف — فيفتح لهم حارس الجنان أبوابها فيدخلونها أفواجا .

ولا شبهة مطلقاً فى أن ذلك العصر كان عصر انحطاط ، نسي الناس فيه أن فطرة البشرية فيها زعة الى الارتقاء ، وأن الطبيعة تدفعها الى النشوء . وإلى التطور ، وأن مدارج النشوء والتطور لابد من أن تعدل من النظمات الانسانية على مقتضى الحاجات التى يشعر الانسان بأنه فى حاجة اليها . حتى انى لا أغالى اذا قلت بان الناس كادوا ينسون ان لهم بالطبيعة الحاققة بهم صلة وأن بينهم وبينها نسيأ أدنى . فالارض مركز النظام الشمسى والانسان محور الكون . وما جعلت الارض فى المركز الا لان الله لغرض ما اختار ان يشرعها ببناء آدم المطرود أبوهم من الجنة . وان الجنة لهم متاع يرتدون اليه بعد حين .

زد الى ذلك معتقداً آخر فى أن القرن العاشر نهاية العالم وأنه الحد الزمانى الذى قدر لنظام العالم أن يبلغ اليه . فكان اقتراب الناس من سنة ١٠٠٠ بعد الميلاد نذير بالدمار وحلول الكارثة الكبرى . والفلك يدور ويتعاقب الليل والنهار ، والسنون تمر تباعاً وسنة ١٠٠٠ تقترب والساعة فى عقبها سوف تأخذ الارض وأهلها عند بزوع فجر اليوم الاول من القرن الحادى عشر . ويترك الناس مزارعهم ومتاجرهم

ويلقى الملوك نيجانهم الى الأرض ، ويترك الامهات أولادهم يموتون جوعاً وعراً ،
ويضيق الرهاب والقساوسة بمفشى الاعترافات ذرعاً فيخرجون الى الاسواق وفي يدهم
السياط الثقيلة يأخذون بها كل من ركع أو سجد على الأرض علامة على انه اذنب ،
فيقوم السجود أو الركوع مقام الاعتراف ، ويقوم السرط مقام اللسان في
منح الغفران .

ثم تقرب الساعة فتلهع القلوب ويتجر صغار العقول وضعايف الاحلام
ويظل الناس ليلة مستهل القرن الحادى عشر سكرى بذكر الآخرة ينتظرون الطامة
الكبرى والكارثة العظمى . ويمر من الليل ثلثيه ثم ثلاثة ارباعه ثم ينشق الفجر : ومن
بعده يتنفس الصباح ، ثم تشرق الشمس ويمر بعض اليوم والكارثة لم تحل ، والطامة لم تنزل !
أمر عجيب ! ان الله قد اجلها لاجل آخر لسر لا يعلمه الا هو ! عذر تقوله الكنيسة
ويقبله الناس . ولكن هذا كان آخر عهد الناس بالانصراف الى الخلاص الاخرى
دون العمل من أجل الدنيا . وهنا يحل رمز الارتقاء من إسيار الوهم ليكون معبود
الغرب مرة أخرى .

هذا المعبود المقدس ، الذى حطم اهل الغرب من أجله كل القيود وفكروا كل
الاغلال ، هو الذى من أجله صارع الفلاسفة ليجلوه أيضاً من أسرار المذهبية . وقد كادوا
يفعلون . وما قصد بهذا التمهيد المسهب الا أن نقول هذه السمكات : كما ان اهل الغرب
قد حطموا كل قائم في وجه ، الارتقاء ، ليمهدوا له الطريق ، كذلك حطموا المذهبية
والمذاهب ليكون الطريق امامهم ذللاً ، وليكون ، الارتقاء ، حراً طليقاً ينصرف في
شئى المناهى غير مصدود ولا محتكم فيه عملاً او فكراً .

° ° °

١ - المذهبية الاعتقادية = دين

و المذهبية الاعتقادية تعصب لفكرة أو مبدأ أو أسطورة تنتقل بالوارثة أو الانتاج جيلاً
بعد جيل . من غير أن يكون للعقل المستقل حكم فيها .

يعتقد بعض الباحثين الآن أن الصراع بين الدين والعلم أمر قد فرغ منه وأن الدين
والعلم تصالحا على ان يكون لكل منهما حيزه ، الاول في عالم الذات ، والثاني
في عالم الموضوع - وكفى الله الناس القتال . ويعتقد فريق آخر أن

صراعاً لم يقع بعد بين الدين والعلم ، وإن كل ما وقع لدى الحقيقة مناوشات أكبرها حادث غليليو في حدود القرون الوسطى ، وحادث داروين في أواخر القرن التاسع عشر . ويعتقد أصحاب الرأي الأخير أن الصراع لن يتناول صورة بعينها من عور الدين ، أو مذهباً من مذاهب الدين ، أو نزعة معينة من منازعه ، وإنما سيقوم حول فكرة وجود الله مالمات فكأنهم يختصرون الطريق . فبدلاً من أن يقطعوا الشجرة فرعاً فرعاً ليتبوا إلى أصلها ، سوف يحملون معاولهم ويضعونها في الجذع أولاً وأخيراً . ولا جرم أنه لا يضع الفأس في أصل هذه الشجرة إلا جبار قوي الأصلاح لم تقم المناوشات لدى الحقيقة بين الدين وبين العلم إطلاقاً وبالذات . بل قامت بين صور خاصة من الدين وبين بعض حقائق وصل إليها العلم . بعض صور حدثت الأفكار . بحدود ضيقة وصدت العقل الإنساني عن أن يساير الحقيقة في طريقها المرسوم — فلما إن افلت العقل من يد الاعتقاد رى هذه الصور بقذيفة ما زال صداها يتردد إلى اليوم في جنبات الفكر الإنساني .

وهنا لا تنسى رمزه الارتقاء ، فإن الإنسان لم يثر على المعتقد إلا مدفوعاً بعامل « الارتقاء » . أما هذا العامل القوى فله وجهان . الأول بلوغ الإنسان منزلة استطاع عندها أن يصارع التقاليد الموروثة والأساطير المتناقلة باللفاح ، والثاني رغبته في أن يصل من الرقي إلى درجة تكون إنسانيته إذا بلغها أكثر تحقيقاً وأثبت سنداً .

ذلك لأن من طبيعة المعتقد أن يصبح مذهباً راسخ القوائم في أعماق أغوار النفس الإنسانية . منعب يعدل كل ملابسات الحياة على مقتضى بضعة أفكار لم يحتكم فيها العقل يوماً ، بل رموز أو أساطير حوطت بسياج القداسة لئلا يدخل العقل إلى حظيرتها فيفسد من أمرها بقدر ما تصور واضعوها أن بقاءها مصونة من غزوات العقل خير للإنسانية . وأنى للقداسة أن تمت لهذه الأحكام وتلك الأساطير بسبب ما لم تكن مستمدة من عالم الغيب منقولة إلى عالم الشهادة على أجنحة ملك لا تراه ولن تراه ، وإما نازلة على تلب صفى من أصفياء الله ، لا دليل على صحة دعواه إلا دعواه بأن ما يدعى صحيح . لهذا ، ومن أجل أن تكون أحكام المذهبية الاعتقادية باللغة منتهى القسوة محوطة من العقل باسم الله الرحمن الرحيم ، استمدت كافة أحكامها وأوامرها وخطراتها

وأسرارها وأعلانيها ، وكل ما فيها ، من عالم لا يراه الانسان الا بعد الموت . فكأنها أشياء هبطت علينا من عالم اللانهاية لتأخذ يدنا إلى ذلك العالم .

فن تائب وأناب فالجنة موثله ، ومن عصي فالنار مثواه

ولعمري أن هذه الشبكة المحبوكه الأطراف ، المنسوجة خيوطها من عالم الغيب والتي لا نعرف مم تتركب خيوطها الا إذا انتقلنا إلى ذلك العالم ، والتي سيجت بسياج القداسة لتلا تدخل أحكام العقل حظيرتها ففسدها وتقصم حلقاتها لشبكة بقدر ما في خيوطها من الوهن والضعف فيها من قوة الالتزام قدر كبير . هي واهنة ضعيفة أمام العقل وأحكام الثقل . قوية إذا استمدت ألفتها من الوهم ومن الرغبة الصادقة في الفوز بالدنيا وبالآخرة

لهذا كانت المذهبية الاعتقادية أقوى صنف المذاهب في النفس الانسانية أثرا وأبعدها غورا ، وأقساها على العقل حكما ، وأمتها للحرية غلا

ولست أقصد من القول بأن المذهبية الاعتقادية تساوى الدين الا أن الدين أظهر مظاهر المذهبية الاعتقادية أثرا في الجماعات الانسانية . فان المذاهب الفلسفية قد تبلغ في بعض الاحيان من الثبات في النفس مبلغ الدين ، فتكون بطورها ديناً تضعف فيه صفة الاستمرار ، وينضب من حوله معين القداسة على قدر ما . وكذلك الحال إذا بحثت العلية قد تصبح لدى ثابت الاعتقاد شيئاً أشبه بالدين . وكذلك الحال إذا بحثت شتى المذاهب في أبة صورة ظهرت ، فانك ترى فيها من الدين شبه ولها به آصرة . غير أنك فضلا عن كل هذا تجد أن احط الجماعات البشرية المتمدينة ان خلت من الاستمسك بأى شكل من اشكال المذهبية ، فانها لن تخلو من مذهب دينية . تلك المذهبية التي اتخذناها عنواناً على بقية الصور التي ينشئها المعتقد على مختلف ألوانه وعلى شتى مناحيه . وهنا تسأل هل من أثر لهذه المذهبية يصد الانسان عن الارتقاء ؟

يدعى أهل المذاهب الاعتقادية بأن ارتقاء الانسان . مشروط على الوقوف حيث تقف أحكام مذهبهم . غير أنهم لا يفتنون الى شيء له أكبر الأثر في تحديد معقول الارتقاء . فان الارتقاء الذى يسعى له الانسان لدى الواقع دنيوى ، والرقى الذى ينشده أهل المذاهب أخرى صرف . هذا فى الدين . أما اذا كانت المذهبية قاصرة على

صورة من صور الفلسفة ، أو تصور من تصورات العلم ، أو حل من حلول البحث الاجتماعي لمشكلة من مشا كل الحضارة ، فالفرق بين معقول الارتقاء فيها يختلف اختلافاً كبيراً ، وإن كان يتفق وما يذهب إليه أهل الدين في ناحية ما . فإن الارتقاء كما هو ديني ، ففهمه كذلك أنه حركة إلى الأمام مسبوكه في قالب ما أو مقودة بفكرة معينة ، أو مسوقة إلى غاية موضوعية . في حين أن المذهبية في كل صورها نذير الحمد والكون الدائم . لأن المذهب ما دام أنه مذهب ، بكل ما تحمل هذه الكلمة من معاني الاستقرار والثبات لا يتحمل مطلقاً أن يتبدل بعض أطرافه دون بعض أو تغير بعض أحكامه أو قواعده قيد أنملة . فإن من طبيعة المذاهب أن تكون في مبدأ الأمر كفكرة بسيطة ومن حول هذه الفكرة تقوم مؤيداتها من الأسانيد العقلية والعلمية . إذن يكون المذهب عبارة عن كل مترابط الأجزاء مؤتلف النواحي ، فيكون مثله كمثل هرم قائم من فوق الأرض ولكنه يرتكز على قته لا على قاعدته . وتجسد فوق هذا ان تركيب احجاره من فوق القمة المرتكزة على الأرض قد تناسقت أشتالها وأبعادها وأحكام رضعها على أنصر القواعد الرياضية وقواعد ارتكاز الانتقال ، حتى أن تتخلل القمة من فوق الأرض أو انحرفاها مفض إلى انهارا الهرم العظيم قطعاً متناثرة ، واجزاء متناثرة . لهذا تجد أن كل فكرة مهما كانت صغتها اذا ما برزت لابس الثوب المذهبي ، فذلك دليل على قرب انهاراها ونذير بان ساعتها قد دقت وإن أوان زوالها قد آت .

على ان هنالك قرناً لا يجب علينا اغفاله بين صور المذاهب اذ تكون فلسفة أو علماً أو أدبا ، وإذ تكون ديناً . فالدين على انه أقصى ضروب المذهبية أثرأ في النفس بل وأرهاها قوة امام العقل والنقد ، فانه أقواها على الاحتمال وأشدّها ثباتاً على الاجيال ذلك لانه مهما استقوى عليها العقل من ناحية الحكم الاستقرائي أو الاستنتاج المنطقي وهما دعائماً الأسلوب العقلي ، فإن من حول مذهبية الدين سياج القداسة يحوطها ويحميها . فان اشتركت مع بقية الصور المذهبية من حيث البناء الهرمي المرتكز على القمة لاعلى القاعدة ، فانها تمتاز بان من حولها سياج القداسة ترتكن إليه كلما اعوزتها الحاجة الى سادة تحميها من احكام العقل أو تصرف عنها سوء ما توجه إليها قوة النقد .

لهذا كانت المذهبية الاعتقادية من اقوى الحوائل التى تحوى دون الارتقاء . واكبر دليل على هذا ان الميعة التى صاحبها الغرب فى وجه الكنيسة وانتهت بفصل الدين عن الحكومة ، والصرخة الداوية التى ىرن فى آذاننا صداها اليوم ضد مذهبية الفلسفة ومذهبية العلم بل ومذهبية الاصلاح الاجتماعى نفسه ، وقد ظهرت جليلة فى مذهبية الشيوعيين والاشتراكيين ، وانتهت بتقرير مبدأ حرية الفكر ، لم يكن لهما من سبب الاوقوف المذهبيات فى وجه الارتقاء . بل ان هاتين الصيحتين ليستا الاتعيراً عن شعور عميق خارج من أعماق اغوار النفس اذ نشرب الى الارتقاء والى التقدم فيحول دونها حائل المذهبية فى أية صورة من صورها ظهرت . وإني لشديد الاعتقاد باننا لن نكون يوماً أقرب الى انتهاج سبل الارتقاء الحقيقى منا اذا حططنا المذهبيات بانواعها وتركتنا الفكر حراً ليسلك بنا السبل التى مهدها من قبلنا عباد الارتقاء من أهل الحضارة الحديثة

المذهبية الجنسية - وطنية

والمذهبية الجنسية تعصب للدم يؤدى الى تقور من بقية سلالات النوع البشرى ، وقد يظهر هذا التقور فى صور عديدة . فقد ينقلب كراهية شديدة أو حسداً ، وقد تسمى هذه الصور البشعة وطنية . والحقيقة أن دوافع الغريزة الحيوانية فى الانسان تدفعه الى الجلاذ والحروب ، فتظهر هذه الغريزة ملابسة لصورة من هذه الصور ،

اذا انحصرت الوطنية فى أنها حب الوطن ، والدفاع عنه ، كانت بذاتها الصفة الطبيعية التى تقع عليها فى الحيوانات وعلى الاخص فى الطيور . فان الحيوانات تدافع عن اوجارها والطيور تحمى عن اعشاشها فى مواقع قد يكون فيها هلكها وفناؤها . غير أن هذه الصفة الطبيعية قد تطورت فى عدة تطورات وفهمت على صيغ مختلفة . فحب الفتح والتدمير قد اعتبر فى عصر من عصور التاريخ وطنية . والحض على الفوضى وقلب النظامات الاجتماعية قد عد عند بعض الفئات وطنية سامية المعانى . وما أشبه الوطنية او بالاحرى مفهوم الوطنية بمفهوم الواجب . كلاهما من يسع من المعانى بقدر ما فى النفوس التى

سرعها من فضائل وهدرها في الرؤوس التي تحتويها من رجحان العقل . فالواجب قد يدعو للصل الى القتل تخلصاً للصل زميل وقع في اسر الابرياء . وكذلك الوطنية قد يتدبر بها أناس فتتهم الظواهر وسكتت الشهوات قتل عموهم ، ليحطموا ما شأؤوا أن يحطموا من مدينت ويتوضوا ما شأؤوا ان يتوضوا من آثار ومعاهد ونظامات . لهذا كان من الصعب على الباحث أن يتكلم في المذهبية الجنسية (الوطنية) من غير ان يحدد ما يقصد من معنى هذا الاصطلاح إلا عى عليه وعلى قارئه واختلطت بباحثه اختلاطاً مريباً وما قصد في الواقع بهذا الاصطلاح الانزعة الكراهية التي تقوم في نفوس أفراد شعب ما لشعب آخر من غير مبرر حقيقي أو تحت تأثير أفكار أو خيالات باطلة .

فان من شأن المذهبية الجنسية أن تشكر محاسن الشعوب ولا تذكر الا سوائها ومن طبعها أن تصور في الخيال صوراً كاذبة تكون مبعثاً للحروب المحطمة والكوارث المدمرة . ومن عناصرها الأولية أن تمثل الانتصار ولذة الانتصار في الخيال فتقدم الشعوب على تحقيق ذلك في الخارج . فهي في قوامها الطبيعي خيال ينزع بالناس الى شهوات تدفعهم الى ابراز ما يخيل إليهم ليكون حقيقة ملموسة ، في حين أن هذه الاشياء كلها من مصورات الوهم ومضاعفات الخيال .

والمذهبية الجنسية صفة موروثة عن الحالات البدائية الأولى . وكانت لدى الواقع من أخص الصفات التي أدت الى تكوين القبائل والشعوب . فان الحالة الحرية الأولى التي استمكنت من طيعة أبناء آدم لحالة لا تجعلها في عالم الحيوان من شبه . فالحيوانات تقتل لتعيش . أما الانسان فكان يقتل ليقول في أغلب الاحيان . بل كان يقتل ليرضى في نفسه نزعات حديثة لم تعرف في عالم الحيوان . فالطامعية والانتقام وشهوة التسلط وامثال هذه الاشياء كلها نزعات ضعفت في عالم الحيوان ضعفاً من الصعب ان تستدل معه على آثارها في الحياة الحيوانية . غير أنها توبت مع الانسان وظهرت فيه مشبوبة في أول أطرار تكونه الاجتماعي مذ كانت الجماعات الانسانية أسراً مفردة ثم قبائل ثم مدناً ثم شعوباً . وكان تقرير مبدأ الملك سبباً في أن تقلب الآفة من ملكية فردية الى ملكية ضمانية . فجد أن كان ملك الفرد لا يتعدى بهيمة أو قوساً أو نشاباً أو كهفاً أو شجرة أو قطعة من الارض أو ما مائل ذلك ، امتدت الملكية الى أن تكون حيازة لمدينة أو تحكماً في قبيلة

ومن ثم أصبحت ملكية لرقاب شعوب برمتها . ومن أجل أن يحتمى الملك الفرد لمستبد وراء ظاهرة من ظواهر الوم تقوم على حالة نفسية ما ، بث هؤلاء في روع الشعوب أن الدفاع والم هجوم إنما هو خير الشعب ولعظمة الشعب . فدارت هذه الأوهام دورتها خلال عصور مديدة ولا تزال حتى اليوم قوة الأثر في كل مآثر من الانقلابات الفجائية الكبرى .

خرج الانسان من عهده البدائي الأول وفي يده آلات أفدم والتخريب . وبلغ أوج هذه المدنية ولا تزال هذه الآلات تنمو بنمو العقل وتتقدم بتقديم الاختراع ، ولا تزال الشعوب مستبعدة لفظة الوم تزج بها في غمرات حروب وثورات منازل بها من شريعة العقل حكم ولا رضيت عنها المدنية ولا الحضارة يوماً من الأيام .

أما وقد بلغنا من البحث هذا المبلغ فإنه يحق علينا أن نتساءل ما هو موقف هذه المذهبية الخبيثة من الارتقاء ؟ أما إذا كانت نزعة الصراع والجلاء بين القبائل البدائية تلك النزعة التي تحتل أكبر مسؤولية في خلق المذهبية الجنسية ، مذكونت الأمم واتشأت المعاهد والنظامات المدنية فإن هذا لا يمكن أن يكون مبرراً أبداً لتزكية هذه النزعة في نفس الأفراد والجماعات وما دامت الأمم قد تكومت بالفعل ، وما دامت النظامات والمعاهد الاجتماعية قد بلغت حداً يمكن أن تنطور فيه من طريق التأثير بعضها ببعض فليس للانسانية على ما أرى من حاجة لأن تزكى نزعات افادتها في عصورها البدائية الأولى . بل إن كل ما نرى من آثار هذه النزعة من مدنية العصر الحاضر ما هي إلا رجعى إلى نزعات فطرية لاحاجة لنا بها .

وهذه الحقيقة التي يمكننا أن نزكها بكثير من الأمثال كافية في الدلالة على أن هذه المذهبية تعوق خطى الارتقاء . ولا نقالى إذا قلنا بأنها من أكبر العقبات التي تصد الانسانية عن أن تمضى في خطا النشوء الطبيعي . وليس بنا من حاجة لان نضرب على ذلك الأمثال أو نرجع إلى وقائع التاريخ ، ونحن لانزال في غمرة الحرب العظمى وآثارها السوأى .

وعندى أن أكبر دليل على أن الانسانية في غير حاجة إلى الرجعى إلى تلك النزعات البدائية رقى العلوم والمعارف . فإن أذهان الباحثين وأقلام الكتاب ، قد أحدثت

في العالم ثورات كبرى من غير ان يراق في سيل ذلك دم ومن غير أن تسطم مدينت
أو تزل عروش ، ومن غير أن يقف انقلاب على يوما واحداً حائلا دون الارتقاء
فاذا ارشدت الانسانية حقيقة استطاعت أن تتكسب سيل الثورات المحطمة والثورات
التجارية الكبرى. وأن تتخذ من تاريخ العلم مثلاً تسير عليه في انقلاباتها الاجتماعية الكبرى
على أنى لأرى لهذا الأمر من سيل الا بتحرير الافكار تحريراً صحيحاً بحيث يفسح
المجال لكل فكرة على أن يعتاد للنمر احترام الافكار وأن يتقبلوها بما يقتضى مبادئه
الحرية من تسامح. فان هذا المجال هو مجال الارتقاء الحقيقي الذي لا يقوم في سيله
مقبة ولا يصد عن السير في طريقه المحتوم صاد

لهذا يجب أن نحارب المذهبية الجنسية وان نتمتها وأن تتكسب طريقها باعتبارها عملاً
حيوانياً ورثة الانسان عن سلالة الاولى. وان الرجعى اليه وتزكية هذه الرجعى عمل
أبعد ما يكون عن الرشاد ، وأنه أبعد الأشياء على الانحلال والفساد

المذهبية الطائفية — انحلال

والمذهبية الطائفية تعصب لمجموع من أمة يتكون حول علاقة فكرية أو لمة طبيعية
أو ظرف اجتماعي : وهي في أبسط مظاهرها انحلال في الوحدة القومية والاجتماعية
يفسح المجال للحروب الأهلية والمنازعات التي كانت سبباً في سقوط الامبراطوريات
الكبيرة والدول العظمى ، بل وفي قناء شعوب برمتها

نفضل أن نبدأ البحث هنا بتجليل نلم فيه ببعض ضروب من المذهبية الطائفية
ومظاهرها حيث توخى الالمام بأنها أراها لهذا نقول

أولاً — اذا انصرفت المذهبية الطائفية للجنس — كان مظهرها أقلية

ثانياً — واذا انصرفت ، ، ، للفكرة — ، ، حزبا

ثالثاً — ، ، ، للعقيدة — ، ، كنية

١ — الأقليات

بمجرد وجود أقلية مندججة في أكثرية ، نذير بظهور المذهبية الطائفية. فان من
طبيعة الاكثريات الميل الى الاستبداد والاستئثار بالمصالح الكبرى في دولة مامن

الدول . ومن صفاتها احتقار الأقليات وعلى الاخص اذا شاعت في الاقلية فكرة أن الاكثرية ترى الى استئصالها . فهناك تشأ فكرة اذلال الاكثرية من طريق الخداع والمكر بها . فيبقى جسم الامة مسموماً بسم الأقلية المترعة بفكرات لها في بعض الاحيان مبرراتها . ولا جرم أن هذا من أكبر عوائق الارتقاء .

٢ - الاحزاب

من طبيعة الاحزاب التكون حول فكرة أصلها الفرد ثم يعتقبا مجموع فيكون حزبا . غير انه يجب بادى ذى بدء أن تكون الفكرة الفردية كائنه في الجو الاجتماعي ومن غير هذا لن تكون الفكرة الفردية حزبا . بل تظل فكرة ضالة تستل من ذهن الى ذهن من غير أن تولف من حولها مجموعاً نظامياً . وشأن الفكرات التي تتكون من حولها الاحزاب كشأن الشرائع . فان نجاح الشريعة أو سقوطها انما يرجع الى حاجة اليها يتشبع بها الجو الاجتماعي من قبل أن يخطها المشرع على الورق .

أما ضرر الاحزاب فيبقى أن يكون راجعاً الى تزويد الفكرة بمضاعفات يقصدها المصالح الذاتية . فان الفكرة التي يتكون من حولها حزب تظل عاملاً ارتقائياً قويا مادامت منصرفة الى الصالح العام بعيدة عن أن تتأثر بالمصالح الفردية أو النوات . وقد يتفق أن يحدث في الفكرة الاساسية تعدد بلا شعور بانصرف في ناحية تكون نتائجها ضرراً لا نفعاً فان الجماعات لا تستطيع وهي في غمرة التحول والنشوء ان تدرك شيئا مما سوف تجري اليها به خطا النشوء السائرة فيها . ولو كان هذا في استطاعتها لعدلت عن كثير من وجهات النظرية بمحض اختيارها . غير أن الجماعات لا تستطيع ذلك . وهذا لا يمكن ان يتكهن انسان بمصير حزب من الاحزاب أو بمصير أمة تقودها احزاب مختلفة المبادئ . ذلك لان الحكم على الآثار الاجتماعية مرهون على نتائج لا يشعر بها الناس الا في المستقبل البعيد . والحكم على الحاضر حكم غير ثابت على كل حال .

اما أظهر مظاهر الضرر التي تحدثها الاحزاب فالتباذ الشخصي . وعلى هذا نرى أن الاحزاب نظام ضروري . غير أنه قد ينصرف عن الخير العام تحت تأثير ظروف خاصة . وهذا لا يكون النظام الحزبي عنصراً ضرورياً للارتقاء الا بشرط واحد ،

هو أن يكون أسسه الغيرية والانصراف الى المصالح العامة وتفضيلها على المصالح الخاصة
مهما عظم شأن هذه ومهما ضل شأن تلك .

٣- الكنائس

اما اذا انصرف المذهبية الطائفية الى العقيدة فانها تكون كنيسة ، أو طائفة دينية
تتخذ لها نظاماً خاصاً ومراسيم خاصة . وهذا ما يقصد في الحقيقة من معنى الكنيسة
وعندى أن الآثار التي خلفتها لنا تواريخ الكنائس على مر العصور قد بلغت اقصى
الضرر برقي الانسانية . بل كانت الحائل الاكبر دون الاخاء الانساني . وكانت موئل
الخلافات ومبعث الشرور الاجتماعية . ولا تكون اكثر اقتناعاً بهذا منا إذا تذكرنا أن
الانسان ليس له اختيار في دينه اكثر مما له اختيار في أن يوجد في هذه الحياة . وعندى
أن الانسان يولد محفوظاً بثلاث ضرورات أولية ؟ الاولى انه يوجد والثانية انه يموت
والثالثة أن يكون له دين . اما الضرورتان الاوليان فطبعيتان . وأما الضرورة الثالثة
فضرورة صناعية فيها من اثر العادة اكثر مما فيها من اثر الطبيعة ولن يكون نظام هذا
شأنه مفيداً للانسانية أو مساهماً في الارتقاء . بل هو نظام موروث يحدث اتجاهها فكراً
ما ، من شأنه أن يزيد من فجوات النظام الاجتماعي وأن يكثّر من ثوق الاتحاد الاخائي
ذلك المثل الأعلى الذي كثيراً ما حاول الفلاسفة ان يرأبوا به صدوع الانسانية .
لهذا أقول بأن إلغاء نظام الكنائس نعمة كبرى للانسانية ، بل ان في إلغاءه اكبر
يد تسدي للتروع الانساني

المذهبية الفردية == جمود

والمذهبية الفردية تعصب للذات من شأنه ان تحجر من حوله كل الصفات المبرنة
التي تجعل الانسان عضواً صالحاً من مجموع بشري يضرب في الاسيل الارتقاء . فإذا
فست هذه النزعة في افراد أمة أو افراد طائفة احدثت جموداً . وفي أية صورة من
الصور ظهرت المذهبية الفردية فتركزت حول فكرة فلسفية أو دينية أو أي منحى
من مناحي الرقي أو التفكير الانساني كان ذلك نذير بزوالها وانحلالها . وقد يكون من

أثر هذه المذهبية ان تنقلب ، جشعاً اجتماعياً ، له آثاره السوأى فى حب الاستئثار بالثروة والنفوذ،

وهذا التعريف نفسه لا يحتاج الى زيادة فى الشرح او اطناب فى البيان . اما المثل على هذه المذهبية الفردية وانها تحدث جوردا ، فظاهر فى بعض المناهب الفلسفية التى لم تصلح لان تكون مدرسة ولم تصلح لان تكون مرشداً فى الحياة . والسبب فى هذا ذبوح هذه النزعة فيها . وأصحاب الجود الفلسفى كانوا يقين ابر عوامل التفهق فى بعض العصور، وان كانوا من ناحية سلبية صرفة، سادة ارتكزت عليها خطأ التطور الاجتماعى . فهى من حيث الايجاب عدم، ومن حيث السلب نافعة بعض النفع ، بل هى ضرورية فى بعض الحالات .

والنتيجة

وان الثوب المذهبي إذا لابس اية صورة من صور الفكر أو المعتقد أو الميول أو النزعات كان أكبر دليل على بدء طور من الانحلال تظهر نتائجه تدرجاً وعلى مر الزمان . أما الارتقاء والمذهبية فدوان للدوران . فلن يكون ارتقاء مع مذهبية ولن تكون مذهبية مع ارتقاء . اذن وجب، علينا أن نضحى بأحدهما ليخلص لنا الآخر . ولا جرم أننا نضحى بالمذهبية لنخلص بالارتقاء ونجعله معبوداً نسجد له . تنجه اليه فى خطانا نحو الحضارة الصحيحة ؟

اسماعيل مظهر

